أن يستعينوا بالثقافة العامة التي يتلقونها في المدرسة ، ولا يعرفون كيف يستفيدون من علم الغريزة (الفسلجة) أو علم النفس أو التاريخ في بحوثهم الأدبية ولا يعرفون شيئاً من مناهج النقد ، وقواعد التحليل الأدبي ، لا لأن الطلاب كسالى أو بلداء ، فالطلاب يدرسون الأدب الفرنسي فيسيغونه ، ويدرسون الرياضة فيفهمونها ، ويدرسون أشياء كثيرة غير هذه يضيقون ببعضها ويتبرمون به ، ويقبلون على بعضها ويحبونه ، ويجدون لذلك كله أثراً في نفوسهم ، فاذا جاء الأدب العربي وجدت أكثر الطلاب لم يلذوه ولم يبق في نفوسهم أثراً

وسبب ذلك أن أكثر المدرسين عاجزون عن أداء هذه المهمة التي انتدبوا أنفسهم لها ، أو انتدبهم لها من بيدهم مقاليد الأمور ، لشهرتهم الأدبية أو لشهاداتهم العالية ، أو لشيء غير ذلك له صلة ضعيفة ، أو لا صلة له بالأدب قط . وأكثر المدرسين اليوم بين رجلين : رجل ثقف الأدب العربي القديم ثقافة حسنة ، وضرب بالسهم الوافر في علوم العربية نحوها وصرفها ، وبلاغتها وعروضها ، ونقدها وروايتها ، وحفظ أيام العرب وأمثالهم واستطاع أن يفهمها حق فهمها ، وينقدها نقد بصير بها ، ولكنه عجز عن أن يدرسها ويدرس رجالها دراسة تحليلية صحيحة لجهله الآداب الأجنبية ، وجهله قواعد النقد الحديث

ورجل درس الآداب الأجنبية أو واحداً منها دراسة عميقة ، وعرف مناهج البحث ، ومذاهب النقاد ، وأحسن نقلها إلى الأدب العربي ، ولكنه عجز عن فهم الشعر العربي ، وجهل علوم العربية ، فغدا لا يستطيع إدراك معنى النص العربي فضلا عن نقده أو الحكم عليه

ثم إن أكثر المدرسين من غير رجال الأدب ؛ وإن فيهم من لم يعرفه الناس شاعراً مطبوعاً ، ولا كاتباً مجيداً ، ولا ناقداً بصيراً ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل . فكيف لعمري نطالب منه غرس الملكة الأدبية في نفوس الطلاب ؟ إن مثل هذا الطالب هدم للمنطق الذي يقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه

* * *

هذه قيمة الحياة الأدبية في الشام ؛ وهذا موطن الضعف فيها ؛ فلا صلاح لها إلا بتقويته ، ولا نجاح لأمة لا تسخر أدبها لخدمة قضيتها . فهل يبدأ في حياتنا الأدبية « عهد الاصلاح » المنتظر ؟

علي الطنطاوي

أزمة أوربا الدينيـــة

في العصر الحاضر

بقلم محمد جلال

يخيل الينا ـ كما يرى الكثيرون ـ أن التصوف هو أ حالات النفس وأقدرها على محاسبة الضمير وكشف حقيقة قال ابن خلدون : « وأصله ـ أي التصوف ـ . . . طريقة ا والهداية[1] » وقال أيضا : « وتتم (بالمجاهدة) وجود النفس ال لها من ذاتها وهو عين الادراك[2] » وقال الأستاذ لالاند :

« Le mysticisme est : .. , croyance à la possibilité d'une ion intime et directe de l'esprit humain en principe fon- mental de l,être [3]

أي أن التصوف هو اعتقاد في امكان حصول اتحاد تام مبا بين الروح وحقيقة الانسان . وقال الفيلسوف برجسو

« Le grand mystique serait une individnalité qui fran- irait les limites assignées à l'espèce par sa matérialité,qui ntinuerait et prolongerait ainsi l'action divine [4]

ومعناه أن الصوفي الحقيق هو الذي يتخطى حجاب الحس الذ وضعته الطبيعة البشرية ليواصل بذلك العمل الالهي

يتضح من ذلك أن التصوف يحقق شرطي الدين وهما الاعتقا والعمل . فتلاحظ إذاً أن معظم المتصوفة قد نشأوا في بيئة دينية إلا القليل منهم من ظل يعمل بعيدا عنه في الظاهر . ولما كا للروح العلمية اتجاه يختلف عن الاتجاه الديني في كثير من أغراضه وميوله ، مال العلماء إلى التخلي عن الدين ورميه بالنقص لهذا سنقصر بحثنا الآن على حقيقة الايمان مع اتصاله بالعلم والفلسفة والتاريخ

(١) مقدمة ابن خلدون — طبعة القاهرة ص ٤٠٨

(٢) مقدمة ص ٤١٠

(٣) Lalande : Vocabulaire de la philosophie-P. 496. Paris 1932

(٤) Bergson : Lea deux Sources de la morale etc ... — P. 215.Paris 1912

ـ العلم :

أحدث تقدم العلم فى القرن التاسع عشر اضطرابا فى الحياة دينية أفضى الى تمحيص الدين على ضوء القوانين العلمية . من لك لوحظ أن نظرية خلق العالم فى سبعة أيام ـ كما هو وارد فى نظم الكتب المقدسة ـ لم تتفق وقوانين العلم الكونى . ن اليهودية والمسيحية والاسلام ومعظم الأديان الأخرى دأت كلها فى الشرق فمن المحتمل إذاً أنها تكاد تتحد فى فكرة لمية واحدة . فى فلسطين مثلا ساد الاعتقاد قديما أن الأرض باطة بطبقة صلبة معلقة فيها الكواكب يعلوها عرش الله الذى يت الأرض وما عليها وهو منفصل عنها ؛ ولكن علم الفلك بت أن العالم لا نهاية له ، فيكون عرش الله واقعا فى حيز العالم جرى عليه سنة هذا الوجود من حركة وسكون . أدى هذا لخلاف الى رأيين : الأول اتحاد العلم والدين ، والثانى انفصالهما

أما الرأى الأول فانه يقرر — على رغم ظواهر الأشياء وما فى لكتب المقدسة من اختلاف — أن هناك صلة بين العلم والدين سهل تحديدها إذا اتفق العلم والدين على معانى الكلمات ؛ فى لمثال السابق مثلاً جاء فى التوراة أن معنى كلمة يوم : مدة مقدارها عصر لا أربعا وعشرين ساعة كما نعتقد نحن اليوم ؛ على هذا لاعتبار تكون الأرض قد تم تكوينها فى ستة عصور — وهذا هو رأى علماء الجيولوجيا

ويقول الرأى الثانى إن للعلم والدين أسباباً ودواعى خاصة كل منهما ، وقد يتفاوت محيط أحدهما بالنسبة لمحيط الآخر دون أن يتعارضا فى شىء . فمقتضى الدين اعتقاد وأمر ثم عمل ؛ وأما مقتضى العلم فكشف قوانين هذا الوجود — بما فى ذلك الانسان — وتحقيقها بالطرق التجريبية . وليس من العلم فى شىء أن تحمل الجماعة على اتباع هذا النظام أو التخلى عن هذا العرف . يستوى عنده البار والفاجر ؛ وبعكس ذلك الدين ، فانه حب وعاطفة ومفاضلة بين بار وفاجر ؛ فهو لذلك ضرورة للنظام الاجتماعى ، وهذا رأى برجسون فى كتابه المشار إليه آنفاً

أفى ذلك طمأنينة للنفوس ؟ قد يكون ذلك . . ولكن ظاهر الشىء غير حقيقته ؛ إذ النفس لا تعرف السكون الذى يُزيّن لها التخير بين طريق وطريق ؛ فهى إن خضعت للدين بالأمس فذلك من طبيعتها ، وإذا خضعت للعلم اليوم فذلك أيضاً من طبيعتها . وقد لا تخضع غداً لا لهذا ولا لذاك ، وعليه فان هذا التقسيم لم يحقق مأربا

٢ — الفلسفة :

أما فى الفلسفة فالنزاع قائم بين أنصار مذهب الفكر (١) «Intellectualisme» وبين أنصار مذهب العمل (٢) «Pragmatisme» . يقرر الفكريون أن الذكاء هو خير وسيلة لفهم الحقيقة الواقعة ، وفى رأى العمليين أنه وسيلة لتكوين صور لأعمالنا نستعين بها على فهم الأشياء

فعند الفكريين (أى معظم فلاسفة الغرب والفرنسيين منهم خصوصاً يتقدمهم ديكارت) تتعين الحقيقة بنفسها ؛ وليس فى مستطاع الفرد ـ مهما كانت قدرته ـ أن يحددها دفعة واحدة ، ولكننا نقرب منها شيئاً فشيئاً مع وفرة مجهودنا الفكرى خلال العصور المتطاولة . كان العلم عند اليونان مثلاً مبادىء وأوليات ، وقد ترقى بعض الشىء عند العرب ، وفى عصر النهضة بأوربا ، وما زال يرتقى ويستخلص أسسه من شوائب كانت سبباً فى تغيير معالم الحقيقة التى لم تغير جوهرها بالنسبة لحاجة الانسان

ويرى آخرون أن ليس للحقيقة وجود ذاتى ، فهى محض فكرة دعت اليها حاجة الانسان . فعند اليونان تدل كلمة حقيقة على شىء نسبى ـ أى أن حاجة الانسان الفكرية تتطلب حقائق مختلفة حسب الزمان والمكان ، وهى بدورها تحقق رغبة علمية واحدة ؛ وبما أن حاجة الانسان غير ثابتة فتكون تلك الحقيقة أيضاً غير ثابتة ، وذلك لاختلاف وسائل تحقيقها . فطرقة الحداد مثلاً كانت حقيقة فى الماضى ـ كذلك مطرقة النجار هى حقيقة اليوم ، ورغم ما أثبته العلم والعمل حتى عهد قريب من صحة نظرية نيوتن الخاصة بتجاذب الأجسام ، فان أبحاث اينشتين تثبت حقيقة أخرى بعد ما هدمت الأولى ؛ أعنى أن هناك تناسباً خاصاً فى الحياة الفكرية لكل عصر ؛ ولا غضاضة

(١) مقابلة لكلمة روحيين «Spiritualistes» كما جاء فى مقدمة ابن خلدون — ص ٣٥٣

(٢) استعملناه مؤقتاً إذ لم نعثر بعد على اصطلاحه فى المراجع العربية

إذا أقبلنا بجميع جهودنا على تلك الحقيقة المتغيرة فهي لم تتحدد بغير منفعتها

مثل وليم جيمس[1] هذا الرأى فى أميركا ـ وأخذ برجسن ببعض منه ، أى الجزء الخاص بتطور الفكر[2] ، وتبع المسيو ادوار لروا أستاذه برجسون فى ذلك إذ رأى أنه يصعب على الرجل العملى فهم الدين من الوجهة المنطقية . وعليه فان عبارة « الأب والابن وروح القدس » معناها تصوير حقيقة واقعة تنشأ عن ارتباط الفرد بغيره . ويقال مثل ذلك فى تفسير وجود عبادة الله وحده — أى كونه ماثلا حقيقة روحاً ودماً (عقيدة سر القربان عند المسيحيين) ؛ ويراها آخرون أنها صيغة أمر ، أى وجوب تصور حالة العبد أمام ربه كما يجب أن يكون عليها أمام انسان يرى فيه أصل الحب والتقديس . هو أصل اليقين والشعور الطاهر ، وقال بمثل ذلك الأب سرتلانج Sertillanges الأستاذ بالمعهد الكاثوليكى بفرنسا فى إحدى جلسات مجمع باريس الدينى الأخير إذ رأى أن أوضاع الدين لم تكن غير نواميس للحياة

٣ — التاريخ

شك علماء التاريخ فى مصادر التوراة ، لأن فيها أجزاء وضعها قديسون ، وقد نُقحت من بعدهم . وللآن لم يستقر الأمر على معرفة كيفية حصول ذلك لعدم توفر الوثائق التاريخية الكافية ؛ فلا يبعد إذن أن يكون قد وقع فيها بعض التغيير أو الحذف . مثال ذلك أسفار موسى الخمسة فانه لم يزل أمرها غامضاً حتى اليوم . يوجد عدا هذا بعض تناقض فى الآيات من حيث الصورة والمعنى . آمن[3] عيسى عليه السلام فى عودته ثانية إلى الارض ، وإن الساعة آتية قبل أن ينقضى العهد الذى نزل هو فيه

يلاحظ هنا تباين نشأ عما رمز اليه فى التوراة من أعمال دنيوية ، إذ انقضى عهده وانتهى النظام الوراثى للملك وهو لم يعد بعد . أدى هذا الاعتراض إلى احداث انشقاق فى الكنيسة الكاثوليكية فى أواخر القرن التاسع عشر . أخذ رجال الكنيسة من جديد يدرسون الانجيل من حيث التاريخ والجغرافيا والنشر وقد قضى الأب لوازى Loisy حياته فى التوفيق بين الدين وال

نشأ عن تلك الحركة اتجاه جديد فى الرأى سمى بمذهب « الاعتقادى » Symbolofidéisme يرى أخذ الأشياء على أنها بسيطة شأنها أن تحدث معتقدات تتناسب مع قوة إيمان ال فيكون مرمى نظرية نزول المسيح تحديد قيمة مثلى

على رغم كل ذلك ما زال فى النفس بقية تدعوها إلى آ معتقد جديد وحقيقة أخرى ، فيرى برجسن وهنرى بوانـ H. Poincaré أن العقل غير كاف وحده لكشف الحقيقة التى وراءها الانسان منذ نشأته . فلا بد له أن يتبع هدى ر كما فعل أفلاطون وغيره

ويرى أوجست كنت وأتباعه أن الدين نظام اجتماعى للتطور مثل الجماعة فى تاريخها من تشريع وأخلاق . و الأستاذ شارل مورا Charles Maurras ضرورة الدين الكاثو لاصلاح النظم الاجتماعية فى فرنسا لما فيه من عناصر السلا

ماهى حالة الفرد النفسية إزاء ذلك الانقسام ؟

* * *

عبر علماء النفس عن ذلك بأنه شعور جديد بشخصية ا يدعوه إلى تحديدها من حيث اتصاله بالجماعة ، ومن حيث ات بنفسه ، مما أدى إلى ترك بعض المعتقدات والتمسك بأخرى ولما كانت الجماعة تحمل فى ماضيها عناصر مدنيات مختلفة فهى الدافع إلى هـذا الشعور فى الفرد . ويختلف الأفراد فى ق ذلك حسب استعدادهم النفسى ، وهذا ما نشاهده فى القد بولس إذ اضطربت نفسه متأثرا بعصره ، فخرج على الدين ثم اليه متحمساً لتجديده ، وذلك بالدرس والمجاهدة النفسية

يرى بعض رجال الدين أن مثل هـذا النوع من الجا محاولة من العبد أن يتصل بالله ليظفر بالغفران . ولكن به أتباع لوثر ليسوا فى حاجة إلى ذلك ، إذ الغفران فى رأيهم للجميع ، وثقتهم بالله عظيمة لتوزيع هذا الغفران ، فلم ي عندهم إذاً هذا النوع من المجاهدة

وهناك فريق آخر يقال لهم الوصوليون Methodistes وغا فعل الخير لأنهم مجبرون عليه ، وهـذا عمل خلو من الش

(١) William James : La Philosophie de l'experience. Tr. fr. 1910

(٢) H. Bergson : L'Evolution Créatrice. Ch. 3. Paris 1928

(٣) ٣ — انظر العهد الجديد — أعمال القديسين — اصحاح ١ — طبعة كمبردج سنة ١٩٢٨